

دراسة حول خَلَفِيَّات الرِّحَالَةِ الأَجَانِبِ إلى فلسطين في القرن التاسع عشر: الرحالة فرانسوا رونييه دوشاتوبريان، ألفونس دي لامارتين، غوستاف فلوبير، ماري إليزا روجرز أنموذجا

Study on the diversion of backgrounds of foreign travels to Palestine in the nineteenth century: Traveller François Ronnet Duchatoubrien, Alphonse de Lamartin, Gostap Flubert, Mary Eliza Rogers Model

ممدوح غالب أحمد بري¹

جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين: mb_a_1982@hotmail.com

محمود يزبك

جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين

تاريخ النشر: 2024/06/30

تاريخ القبول: 2024/05/15

تاريخ الاستلام: 2024/05/04

ملخص:

تستقي هذه الدراسة مصادرها من أربع رحلات لرحالة أجانب، تعود أصولهم إلى فرنسا وإنجلترا، كانوا قد زاروا مدينة يافا وفلسطين خلال القرن التاسع عشر، وتتوزع رحلاتهم بين أعوام 1803-1859م، وهي فترة مهم في تاريخ فلسطين العثماني، نتاج ما شهدته من تحولات وأحداث سياسية مهمة. كان أبرزها أثار حملة نابليون بونابرت في مصر وبلاد الشام 1798-1801م، وتبعها حملة فريزر البريطاني على مصر 1807م، وحملة حاكم مصر محمد علي باشا على بلاد الشام 1831-1840م، ودخول عهد التنظيمات والإصلاحات العثمانية 1839م و1853م، وعدة حروب داخلية، سيما بين العوائل الإقطاعية في جبل نابلس منذ انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام، وكذلك هزيمة الدولة العثمانية في القرم عام 1854م، وما ترتب على كل ذلك من تدخلات وامتيازات أجنبية، وتنامي دور القناصل الأجانب والإرساليات التبشيرية إلى فلسطين وسائر بلاد المشرق العربي والإسلامي.

اخترنا من بين هذه الرحلات أبرز تلك التي تزامنت مع هذه التحولات والأحداث الهامة التي تأثرت بها الحياة العامة في فلسطين، وكان أبرزها رحلة الرحالة فرانسوا رونييه دوشاتوبريان (ت1848م) من أبرز الرحالة، وهو فرنسي الجنسية، يعتبر مثقف كاثوليكي، تعتبر رحلته التي حملت عنوان "الطريق من باريس إلى القدس عام 1803م" إحدى أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

يُعتبر الرحالة الفرنسي ألفونس دي لامارتين (ت1869م)، وكتابه الذي حمل عنوان "مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832م"، حيث تجول في مدن فلسطين، ودخلها من الشمال قادماً من جبل لبنان، ويعتبر كتابه أحد أهم المصادر التي اعتمدت عليها، وتطغى على مشاهداته صبغة الكاثوليكي الفرنسي المتدين، المنفتح على الإسلام، لكنه لم يستطع أن يخفي أنه ابن تلك الحضارة الغربية.

أسهم غوستاف فلوبيير (ت1880م) الروائي الفرنسي الليبرالي في إثراء هذه الدراسة، من خلال كتابه "رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج عام 1850م"، نتاج شخصيته المتحررة اجتماعياً. كان لرحلة الشابة الإنجليزية ماري إليزا روجرز (ت1910م) النصيب الأكبر من بين مصادر هذه الدراسة، لما تميزت فيه من تفصيل دقيق لأبسط تفاصيل الحياة الاجتماعية في فلسطين، في كتابها الموسوم بعنوان "الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م"، حيث أسهمت رفقتها لشقيقتها الدبلوماسية الإنجليزية الذي مكث في فلسطين طوال أكثر من أربع سنوات في إثراء تحليلاتها ومشاهداتها، نتاج شروحه وتوجيهاته، فأثرت في ثقافتها وعززت من قدرتها على فهم طبيعة المجتمع، والتعبير الجيد عن كل ما تشاهده.

كلمات مفتاحية: الرحالة الأجانب، فلسطين في القرن التاسع عشر، فرانسوا رونييه دوشاتوبريان، ألفونس دي لامارتين، غوستاف فلوبيير، ماري إليزا روجرز.

Abstract:

This study is sourced from four foreign traveler trips, returning to France and England. They had visited Jaffa and Palestine during the nineteenth century. and their journey spread between 1803-1859, an important period in the history of Ottoman Palestine. Most notably, Napoleon Bonaparte's campaign in Egypt and the Levant 1798-1801 and the campaign of the ruler of Egypt, Muhammad Ali Pasha, on the Levant, 1831-1840 and entering the era of Ottoman organizations and reforms 1839 and 1853, and several internal wars since the withdrawal of Muhammad Ali Pasha from the Levant, as well as the defeat of the Ottoman Empire in Crimea in 1854, and the resulting foreign interventions and privileges, The role of foreign consuls and missionaries in Palestine and other Arab and Islamic Mashreq countries has grown.

From among these trips we selected the most prominent ones that coincided with these significant transformations and events affected by public life in Palestine, most notably the journey of traveler François Ronnet Duchatobrian (1848), a French national, regarded as a Catholic intellectual, whose journey entitled "The Road from Paris to Jerusalem in 1803" is one of the most important sources relied on in this study.

The French traveler Alphonse de Lamartine (1869), whose book is titled "An Anthology from the Book of Journey to the East in 1832", toured the cities of Palestine, entered from the north from Mount Lebanon, and was considered one of the most important sources I relied upon.

The liberal French novelist Gustap Flubert (T1880) contributed to the enrichment of this study, through his book "A Trip to East Palestine,

Lebanon and Carthage in 1850M", the product of his socially liberated character.

The journey of young English woman Marie-Eliza Rogers (T.1910) had the largest share of the sources of this study, characterized by an accurate detail of the most basic details of social life in Palestine, in her tagged book titled "Life in Palestine Houses, Marie Eliza Rogers' Trips in Palestine and its Interior 1855-1859" The English diplomat, who has been in Palestine for more than four years, has enriched her analysis and observations as a result of his explanations and guidance, influencing her culture and enhancing her ability to understand the nature of society, and to express well all she sees.

Keywords: Foreign Travellers, nineteenth century Palestine, François Ronnet Duchatobrien, Alphonse de Lamartin, Gostap Flubert, Marie Eliza Rogers.

¹. المؤلف المرسل، ممدوح غالب أحمد بري: mb_a_1982@hotmail.com

تمهيد:

لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنِ الحَيَاةِ العَامَةِ فِي مَدِينَةِ يافَا وَمُحِيطِهَا البَيِّئِ والاجْتِمَاعِي التي وردت في كُتُبِ الرِّحَالَةِ الأَجَانِبِ خلال القرن التاسع عشر بِدُونِ فَهْمٍ وَتَحْلِيلِ خَلْفِيَّاتِ الرِّحَالَةِ، مِنْ حَيْثُ ثِقَافَتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ وعِلاَقَاتِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ مَعَ النُّخْبِ والأَهْلِيِّ والدُّورِ المَنُوطِ بِهِمْ فِي فِلَسْطِينِ، وَخَلْفِيَّاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ والمَذْهَبِيَّةِ، وَمَسْتَوَاهُمُ التَّعْلِيمِيَّ والفِكْرِيَّ، وَمَوْقِفُهُمْ مِنَ الأَخْرِ المُخْتَلِفِ، وَكَذَلِكَ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ المُسَبِّقَةَ عَنِ فِلَسْطِينِ وَسُكَّانِهَا وَسَائِرِ بِلَادِ المَشْرِقِ.

لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِفَ المُشَاهَدَاتِ الأَوَّلَى لِلرِّحَالَةِ حَوْلَ المَظَاهِرِ العِمْرَانِيَّةِ والبَيِّئِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ والسَّكَّانِيَّةِ فِي يافَا وَمُحِيطِهَا إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيمِ تَحْلِيلٍ حَوْلَ خَلْفِيَّاتِ الرِّحَالَةِ وَمَدَارِكِهِمُ المُسَبِّقَةَ، لِمَا لَهَا مِنْ عَظِيمِ الأَثَرِ والذي شَاهَدْنَاهُ فِي أَسْلُوبِ كِتَابَاتِهِمْ وَطُرُقِ التَّعْبِيرِ عَنِ مُشَاهَدَاتِهِمْ.

1:1- فرانسوا رونييه دوشاتوبريان 1768-1848م:

نَتَحَدَّثُ عَنْ مُثَقَّفٍ فَرَنْسِيٍّ مَسِيحِيٍّ أَرْتُوذُكْسِيٍّ مُتَدَيِّنٍ، جَاءَ إِلَى فِلَسْطِينِ عَامَ 1803م بَعْدَ هَزِيمَةِ إِمْبَرَاطُورِ فَرَنْسَا نَابَلِيُونِ بُونَابَرْتِ فِي المَشْرِقِ 1798-1801م مُبَاشَرَةً، يَحْمِلُ غُرُورَ الثَّقَافَةِ الفَرَنْسِيَّةِ وَالمَغْرِبِ الأَوْرُوبِيِّ، جَاءَ فِي فِتْرَةٍ لَا يَوْجَدُ فِيهَا لَدَى فَرَنْسَا فِي السَّاحِلِ الشَّامِلِ ذَلِكَ النِّفُوزَ السِّيَاسِيَّ،

وكانت تخلوا مُدُنُهُ من القُنصليات في حينه، وحتى على مستوى باقي بلدان أوروبا، مما انعكس على طبيعة الاستقبال والمبيت والتنقل الذي عايشه - دوشاتوبريان -، فلم يجد وسيلة تَنَقُّل أو مكانٍ لِلْمَبِيت إلا عبر اعتماده في الغالب على الآباء والرهبان في الأديرة، وذلك نتاج علاقاته وخبرته التي اكتسبها خلال رحلته في بلاد اليونان وإسطنبول قبل وصوله إلى يافا، لربما أن ذلك أيضاً نتاج وضعه المادي المحدود ونتاج ثقافته الدينية المتعصبة والغير منفتحة على السكان المحليين، أو نتاج الكثير من الأفكار والتصورات التي نسجها له الآباء والرهبان في يافا¹.

بينما تميزت تلك الرحلات التي وصلت إلى فلسطين خلال الحكم المصري 1831-1840م، باهتمام ومتابعة من قبل حُكَّام وأغاوات مدينة يافا وباقي مُدن وقرى فلسطين وجنود الحاميات العسكرية فيها، وجرى ذات الأمر وذات الاهتمام مع تلك التي قدمت إلى فلسطين بعد انتهاء الحكم المصري، وذلك نتاج زيادة النفوذ السياسي للقنصليات الأجنبية².

وكانت قَدْ دَارَتْ في مُخَيَّلَةِ -دوشاتوبريان- خلال رحلته إلى فلسطين عام 1803م جملة من الأفكار المُسبقة والخَلَفِيَّات الذِهْنِيَّة حول الأَرْض المُقَدَّسَة بِجُمْلَتِهَا، وَلَيْسَ فَقَط عن يافا، بل عن القُدس وبَيْت لَحْم وَنَهْر الأُرْدُن وَالْبَحْر المِيت أيضاً³. حيث وصفها - دوشاتوبريان - بالأَرْض البدائية والبكر⁴، وهنا تبدو واضحة مظاهر الاعتداد بالحضارة الغربية.

كانت في مخيلته المعالم الجغرافية التي تحدثت عنها التوراة⁵، نتاج خلفيته الدينية، وتأثره بالعهد الجديد. ولديه موقف سلبي تجاه الإسلام، عبر عنه في أكثر من موضع وتمنى استعادة السيطرة المسيحية والأوروبية على هذه البلاد كما كانت في عهد الحروب الفرنجية. وَخَلَطَ بين الأصول التركية والعربية في فلسطين⁶، وهذا نتاج أن العقل الأوروبي اعتاد طوال قرون عدة أن يصف العالم الإسلامي ببلاد الأتراك وبالعثمانيين، وهذا نتاج الدور السياسي والعسكري الذي تصدر مشهده العرق التركي المسلم، حينما دافع عن بلاد الشرق خلال عدة غزوات استعمارية أوروبية متعاقبة على سواحل بلاد المشرق وفي البحر المتوسط.

لم ينظر إلى بلاد الشرق سوى أنها ماضي وسرد تاريخي، وكانت مُخَيَّلَتُهُ تُعْج بالكثير من الأسماء والأماكن والمناخات العتيقة التي رسمها مخياله، نتاج قراءاته الدينية، فكان كل ما يشاهده من

أماكن وأشخاص وبيئة وتفاعل اجتماعي يعمد إلى إسقاطه على صور عدة كان قد رسمها في عقله نتاج قراءاته حول جغرافية التوراة.

لم تتوقف تعبيراته ذات الدلالات الدينية والتاريخية في جانبها التوراتي، عندما وصف جبال فلسطين بمهد الإسرائيليين، بل تجاوزها حينما أظهر افتخاره بالحملات الصليبية⁷، خلال حديثه عن المدن والقرى ومظاهر عمرانها، والاطلاع على أطلالها وخرائبها، فكان يطلق عليها العديد من الأسماء الصليبية، ويسمي الكثير من طرازها المعماري ويرجعه إلى تلك الحقبة.

2:1- ألفونس دي لامارتين 1790-1869م

تزامنت رحلة دي لامارتين الفرنسي الأرثوذكسي إلى الشرق عام 1832م مع سيطرة الحاكم المصري إبراهيم باشا على فلسطين، وتخلل ذلك آثار سلبية على صعيد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وعلى الجانب العمراني، سيما بعد تحويل عكا إلى كومة من الركام والخراب⁸، وانعكس هذا المشهد وهذه الديناميات السياسية وغيرها على جزء واسع من أحكام ومشاهدات - دي لامارتين - خلال تجواله في مدن فلسطين.

اعتمد دي لامارتين على وضعه المادي في الكثير من سبل الراحة في رحلته، من بينها ارتداد فندق وخان في مدينة يافا، بينما لم يسمح له الرهبان دخول دير اللاتين في ذات المدينة⁹، سهلت علاقات قنصل النمسا الجيدة مع والي عكا عبد الله باشا رحلة دي لامارتين، وكذلك ساعدته علاقته الاجتماعية مع الليدي الإنجليزية - هستر ستانهوب - في توفير سبل الراحة والعناية والخدمة التي تلقاها لامارتين، سيما بعد مروره في ديار أبو غوش شيخ الصحراء وحاكم أجزاء واسعة في جبل القدس وبيت لحم وزعيم أكبر تجمع قبلي في فلسطين¹⁰.

تميزت هذه الفترة من عمر الدولة العثمانية بتعاظم دور القناصل، سيما نتيجة حملة محمد علي باشا على بلاد الشام. حتى أن مجمل كنائس فلسطين كانت تلك الفترة تخضع تحت سيطرة القناصل الأجانب، بحيث يكتب الآباء في الكنائس للقناصل كل ما يعتبرهم من مشكلات اجتماعية وسياسية، قد يكرهوا عليها عبر قرارات وسلوكيات يفرضها عليهم الحكام حكام مدن الفلسطيني،

وفي المقابل تتدخل هذه القنصليات عند الباشا أو الحاكم، ويتم حُلُّها بِسُرٍّ وَسُهولةٍ¹¹، نتاج الاتفاقيات والتفاهات الموقعة فيما بينهما.

انتقد – لا مارتين - مشاهد الملل والبطالة التي وصف بها حياة الرهبان في الأديرة، وتحدث عن ظاهرة الجهل وتدني المعرفة الدينية والتاريخية والاجتماعية لدى غالبيتهم، رغم طول سنوات مُكوّنهم في هذه الأديرة، ويفترض أن هذه السنوات قد أسهمت في صقل معارفهم، إلا أن مجمل نقاشاتهم سطحية ومُخجلة¹²، مما يمنحنا تصور عام حول شخصيته الليبرالية ببعدها الثقافي النظري.

كشف – دي لامارتين - حقيقة حياة العدالة والرخاء التي يتمتع بها الآباء والرهبان في سائر أديرة فلسطين، ووصف مظاهر البحبوحة والثراء الذي كانت تعيشه هذه المؤسسات الدينية المسيحية في فلسطين، بمختلف مذاهبها، مع فوارق لصالح ثراء كبير تميزت به الأديرة والكنائس الأرمنية¹³. لم نجد هذا التعصب في كتابات – دي لامارتين - تجاه الدين الإسلامي¹⁴، والعرب الفلسطينيين منذ دخوله فلسطين عبر الحدود مع لبنان خلال مروراً بأراضي الجليل الغربي وعكا وسائر مناطق جبال الجليل حتى دخوله مدينة يافا، بل تميز بقدرٍ من الموضوعية، سيما عند وصفه مظاهر الاحترام الذي يتمتع به الآباء والرهبان في أديرة فلسطين لدى سكان البلاد، سيما من العرب المسلمين¹⁵، وتحدث بشكل تفصيلي حول الاحترام المتبادل والتسامح¹⁶، سيما في مدينة الناصرة¹⁷، وفي باقي مدن فلسطين.

تغنى بعظمة بلاد كنعان، لكنه لم يُحدّد الحيز الجغرافي لبلاد كنعان، ووصفها بقبيلة¹⁸، وكأنه اختزلها بحيز جغرافي محدود في منطقة الشمال، أسفل مرجل بن عامر، الذي وصفه بسهل قبيلة كنعان¹⁹، ربما كان يقصد بذلك جبال نابلس حتى شمال مدينة جنين.

كان وصفه لتقسيم أقاليم فلسطين غير علمي، حينما حددها في منطقة يهودية وفلسطين والجليل²⁰، وتحدث عن المُدُن اليهودية وأرض التوراة في عدة مواضع بشكلٍ مُبالغ فيه²¹، ووصف شيء من جغرافية يهودا، وموقع قبيلتي افرايم وبنيامين²²، وهنا كما يبدو أنه تأثر بشيء مما علق في ذهنه أو تأثر به من خلال حكايات الموروثة الديني الغربي، المتأثر بالتوراة والعهد الجديد. وتوسع في هذا السياق التوراتي، حينما أوشك أن يصل أسوار القدس، حيث تفتقت قريحته التوراتية عبر

سرد روايات دينية أسقطها على المواقع والأماكن²³، ويبدو غريباً بالنسبة لي هذا الميخيل لدى رجل أرثوذكسي، بينما يمكن أن يُستساغ لو كان بروتستانتي.

لم يُحسن -لامارتين- أن يُمَيِّز بَيْنَ الْعَرَبِ مِمَّنْ يَسْكُنُونَ الْقَرْىَ وَمَنْ جَانِبَ آخِرِ الْبَدْوِ، بل وصف مجمل مشاهدته لِرِجَالِ عَرَبٍ بِالْبَدْوِ، سيما في الجليل²⁴، والطريق الساحلي الواصل بين حيفا ويافا²⁵، لكنه بعد فترة من الترحال في فلسطين، وكأنه استطاع أن يُعيد التمييز بينهما، حينما وصف الأبنية العربية بجمالها وأناقتها، وقامَ بِتَمْجِيدِ الْكَثِيرِ مِنْ خِصَالِ الْعَرَبِ فِي يافا والرملة وَغَيْرَهُمَا²⁶.

مَنَحَ الْعِرْقَ التُّرْكِي أَفْضَلِيَّةَ سَكَانِيَّةٍ وَمَعْمَارِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ تَعْدَادُ السَّكَّانِ، بحيث كان يصف الكثير من المساجد والجوامع والحمامات والكثير من القرى التي كان يَمُرُّ بِهَا أو يَلْمَحُهَا من بعيد بالتركية، رغم موقفه السلبي المنتقد للحكم التركي، بذريعة نشر الذعر والخوف بين أهالي مدينة القدس²⁷، وهذا خلط واضح بين دور وتأثير حُكَّامِ الْبِلَادِ الْأَتْرَاكِ خلال القرون الماضية وأهمية هيبة الدولة، وبين سُكَّانِهَا الْعَرَبِ مِمَّنْ دَشَّنُوا هَذِهِ النِّفَائِسَ الْمَعْمَارِيَّةَ.

تزامن وقت نزوله في يافا وجوارها والقدس وجوارها مع انتشار داء الطاعون في هذه المدن²⁸، مما أَثَّرَ كَثِيرًا عَلَى دَقَّةِ مُشَاهَدَاتِهِ، لكنه امتلك عدة مهارات، ساعدته على أن يتغلب على الواقع المحلي، ويصف المظاهر الخارجية للحياة الاجتماعية في تلك المناطق بشيء من المقبولية، بدون أن تتغلب على لغته ومفرداته أزمة داء الطاعون الطارئة، إلا أنه مثل غيره من الرحالة، لم يحاول أن يدخل في أعماق المجتمع والأحياء الفلسطينية داخل المُدُنِ، سيما تلك الأحواش التي تُعْبِرُ عَنْ حَقِيقَةِ عَالَمِ مَجْتَمَعَاتِ تِلْكَ الْحَقَبَةِ الزَّمَنِيَّةِ.

3:1- غوستاف فلوبير 1821-1880م

يعتبر - غوستاف فلوبير - روائي ليبرالي فرنسي لديه نزعة متحررة من القيود الأخلاقية، اتضحت في عدة مواضع خلال زيارته فلسطين²⁹، زار فلسطين عام 1850م، وصلها عبر الطريق الساحلي قادماً من شمال فلسطين³⁰، وهي الفترة التي أعقبت انتهاء الحكم المصري في فلسطين عام 1832-1840م، وما تخللها من عودة تدريجية لأنماط الإدارة العثمانية في فلسطين، وأعقبها تحديث الكثير

من القوانين والمؤسسات والنُظم الإدارية، وانعكس ذلك على دور القوى الأجنبية في فلسطين. لكن لم يعتمد - غوستاف - كثيراً في رحلته على نفوذ وتأثير بلاده في فلسطين، ولا حتى على عائلات وشخصيات ومؤسسات دينية في فلسطين مرتبطة بفرنسا³¹.

اختار طاقم معاونيه ومرافقيه بنفسه، منذ وصوله إلى يافا، ولم يمكث في الأديرة الكاثوليكية أو تلك المؤسسات التابعة لفرنسا، بل اختار أن ينزل في إحدى خانات يافا البسيطة³²، وهو خان أرمني³³، وتناول طعامه في فندق خاص، على عكس سواه من الرحالة ممن اعتادوا أن يرتادوا منزل أو أماكن مبيت في الأديرة أو منازل أثرياء طائفتهم، وهي دلالات تتيح لنا أن نستقي منها مظاهر تراجع النفوذ الفرنسي في هذه السنوات، سيما بعد انسحاب إبراهيم باشا من فلسطين، نتاج علاقاته بفرنسا³⁴، واستمرت العلاقات المصرية الفرنسية الجيدة حتى غاية عام 1882م، وأدى هذا التراجع الفرنسي في بلاد الشام إلى تقدم إنجلترا، التي تمتعت بعلاقات جيدة مع الدولة العثمانية خلال تلك الفترة.

لم تخدمه ليبراليته ذات الطابع الأدبي الروائي، نتاج ما وقع فيه من مُغالطات، عندما تحدث عن جغرافيا لها بعدها التاريخي والديني والسياسي، لأنه لم يعلم الكثير عن بيئات الشرق، ولم تساعده ليبراليته في الانفتاح على المجتمع الشرقي، بحيث حافظ على حاجز وجداني بينه وبين العربي الفلسطيني، لم يختلط مع المجتمع العربي الفلسطيني خلال رحلته بما يكفي لينعكس على كتاباته، حتى أنه لم يندمج مع مرافقيه بما يكفي، سيما سائس الخيل والدليل والبغالة، لم يتبادل معهم الأفكار حول مشاهداته، بل كان يكتفي بالمشاهدة، أو الاستماع إلى حوارات بعيدة عنه تجري بين المارة والباعة والجند الأتراك³⁵.

لم تقدم كتاباته حول رحلته إلى فلسطين الشيء الكثير، ولم أجد فيها ذلك العمق المعرفي. فهو يكتب ما يرى داخل وخارج يافا³⁶، ولديه نظرة تشاؤمية لربما نتاج توجهاته الأدبية والليبرالية، بحيث لم يستطع أن يفهم طبيعة الحياة في القدس على حقيقتها، وصف مشاعر التدنُّن لدى زوار الأماكن المسيحية بأنها مُزيفة، لم يحسن أن يجري حوار جيد مع الحلاق، بل اكتفى بانتقاد ابتسامته، ولم يحسن فهم أسبابها وحيثياتها، وتحدث عن صور الآباء والشهداء في زوايا الكنائس بشيء من عدم الاكتراث، وغير ذلك الكثير من النتوءات التي يُعجُّ بها مُدوناته³⁷، وربما وقع في ذلك

كونه وصل إلى يافا والقدس في ذروة شهر رمضان³⁸، إلا أنه لم يحاول أن يتخيل الحياة العامة في القدس خارج نطاق الساعات التي أُتيحَ له التجوال فيها، سيما في المساء بعد وقت الإفطار. تجاهل وجود السكان الأصليين العرب الفلسطينيين، لم يبحث بعمق، بل قُلَّ أنه كان يفترض أن كل شخص يشاهده أو يلتقي به هو بمثابة يهودي، حتى أنك قد تتخيل نتاج ما افترضه أن فلسطين فارغة من أهلها العرب الفلسطينيين ولا سيكونها سوى اليهود فقط، وينسج حول ذلك قصصاً وحكايات، مثل قصة اليهودي الذي قدم له المياه في القدس³⁹، بدون أن يجري معه حواراً، بل وصفه مباشرة باليهودي، وذلك الرجل الذي يعتمر قبعته ويرتدي سُرّة من الفرو، فوصفه باليهودي أيضاً باليهودي، وفي القدس فندقاً يديره يهودي⁴⁰، وتلك الغابة التي تزدهر بها مُختلف أنواع الأشجار قرب مدينة جنين، فأسمها بـرية إسرائيل⁴¹، وذلك اليهودي الذي كان يخرج من حمام إبراهيم باشا في طبرية فهو أيضاً يهودياً⁴²، وتجاهل وجود العربي الفلسطيني في هذه الديار التي كانت عامرة بأهلها العرب الأوائل. حتى أنه لم يستخدِم كلمة فلسطين، سوى عندما أطلقه على منطقة جغرافية ضيقة، لربما تلك التي تقع في جنوب شرق مرج ابن عامر، تجاهل وجود العمارة الكنعانية والعربية، وبالغ في تمجيد ووصف العمارة اليونانية والأرمنية في عدة مواضع⁴³.

4:1- ماري إليزا روجرز 1827-1910م

نتحدث هنا عن شابة مثقفة، تنتمي لعائلة إنجليزية، جاءت إلى فلسطين وعاشت فيها بين أعوام 1855-1859م برفقة شقيقها -إدوارد نومس روجرز- الدبلوماسي الإنجليزي، حيث كان مُلحق سياسي يتنقل بين قنصليات ومكاتب بلاده في يافا وحيفا والقدس، يتدخل في الكثير من الصراعات المحلية، سيما في مراكز الأرياف والمُدن، يَعْلَم الكثير عن واقع فلسطين السكاني والاجتماعي والثقافي والسياسي والديني، جاء إلى البلاد بعد مرور عقد ونصف على انتهاء حكم محمد علي باشا في فلسطين عام 1840م، وجاء خلال منازعات حرب القرم 1853-156م بين الدولة العثمانية وروسيا، وما تخلفها من نفوذ وتغلغل أوروبي في الأراضي العثمانية، وكان النفوذ الأبرز لصالح بريطانيا، مقابل تراجع فرنسي واضح.

تأثرت - ماري روجرز - بخبرات ومواهب شقيقها - إدوارد -، وكانت تستمع جيداً بما يقدمه لها من شُرُوحات وَتَفصِيلات، وأسهمت علاقاته السياسية والاجتماعية في سائر مناطق فلسطين في تعزيز قيمة ملاحظاتها ومشاهداتها التي عبرت عنها في كتابها. لم تُبرز هَوِيَّتَها الدينية، ولم تُظهِر تَعَصُّبَها الحَضاري بقدرٍ فَجَّ على عكس غيرها من الرحالة، وهذا نتاج اهتماماتها العلمية واختصاصها في حقل دراسة بلاد الشرق، ونتاج تأثرها بالأجواء والنقاشات والمواقف التي شاهدها بصحبة شقيقها إدوارد أو بصحبة تلك العوائل العربية المسيحية والمُسلمة⁴⁴، أو في بيوت الأسر الحاكمة في مدن وأرياف فلسطين.

كانت بيوت هذه الأسر والعائلات الأرستقراطية أماكن مبيتهم وسكنهم المؤقت خلال مراحل تجوالهم في فلسطين، وكان من بينها ارتادوا منزل السيد خياط وهو موظف في قنصلية بلادها، وقبل أن يستضيفهم في منزله كان قد قدم لهم كل ما يلزم خلال وجودهم في الحجز الصحي في يافا⁴⁵، مما كان لهذه الأجواء المتنوعة بالغ الأثر الذي أسهم في تعزيز قدراتها خلال وصف وتحليل مشاهداتها، من زوايا ومدارك وخلفيات مُختلفة، انعكس بالإيجاب على مصداقية ومكانة مُدَوَّنَاتِها حول هذه الرحلة.

رغم وصفها جبال فلسطين بمرتفعات يهودا⁴⁶، إلا أنها لم تُبالغ في ذلك الوصف، بل ويبدو أنها قد تراجعت عنه رويداً حينما تعرفت على طبيعة التركيبة السكانية في فلسطين، وتميزت -ماري- بشيءٍ منَ الموضوعية العلمية من حيث وصف الشيء كما هو، وكذلك كانت نظرتها مقبولة تجاه المسلمين، ويضح ذلك من خلال مواقف لا حصر لها، وأبرزها حينما دخلت في الحجر الصحي داخل يافا، تحت إشراف الأطباء، فوصفت التعامل داخل الغرفة المُخصَّصة لهم، وطقوس الطعام والصلاة لدى جيرانهم من المسلمين في الغرفة المحاذية لهم⁴⁷، وكذلك خلال زيارتها برفيقة شقيقها إلى قلعتي صانور وعرابة⁴⁸.

استخدمت اسم فلسطين منذ الوهلة الأولى⁴⁹، مما يوحي أن لذلك دلالات خاصة بثقافتها وخلفياتها الفكرية، قد تكونت نتاج ما رسمه لها شقيقها -إدوارد- قبل الانطلاق في رحلته، وصدقاً يصعب أن نجد من الرحالة الأوروبيين من يطلق عليها اسم فلسطين قبل أن تنزل قدميه على ترابها وبعد عدة تفاعلات، بحيث كانت تعج كتاباتهم بكلمات صليبية أو تورانية من قبيل الأرض المقدسة وأرض

إسرائيل وبلاد يهوذا ويهوذا وجبال السامرة وموطن قبيلتي لاوي وبنيامين وهكذا⁵⁰. استخدمت
مكائنها الكثير من الأسماء العربية الفلسطينية في مجمل مراحل تنقلها في أرياف فلسطين الجبلية
والساحلية، سيما تلك التي صادفتها في طريقها بين يافا والقدس، مثل الرملة وقالوني ويالو⁵¹، وفي
بلدات جبال نابلس⁵².

رغم كل ما سبق فهي ابنة الثقافة الغربية، لم تستطع أن تتحرر بالكامل من مخيال ثقافتها الأم،
سيما عندما خرجت من يافا وأوشكت على أن تصل القدس، وعندما دخلت في حدود منطقة
الزعيم أبو غوش، حاولت أن تؤكد أن هذه القرية ليست سوى قبيلة بدوية كبيرة ومُهابة، سكنت
على أطلال قرية عبرية اسمها يعاريم⁵³، بينما وصف الرحالة دي لامارتين في موقع (قرية عناتا/أناتا)
آخر يقع شرق القدس ويتبع قبيلة أبو غوش بأنه موقع قرية إرميا العبري⁵⁴، وظهرت هذه
التصورات الدينية المُسبقة حينما بدأت تظهر ملاح مدينة القدس من بعيد، حينها بدأت تنتعش
ذاكرتها الثقافة العبرانية، التي هي جزء من الثقافة البروتستنتية المسيحية في إنجلترا، وفي ذات
السياق صفت المباني القديمة خارج أسوار القدس بأنها مباني كان قد شَيدَها العبرانيون⁵⁵.

هوامش البحث:

¹ دوشاتوبريان، فرانسوا رونيه، الطريق من باريس إلى القدس عام 1803 م، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى
للثقافة والنشر، العراق - بغداد - شارع أبو نواس، ط1، 2008 م، ص 103-104 (فيما يلي دوشاتوبريان).

² لامارتين، ألفونس دي، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832 م، ترجمة جمال شحيد وماري طوق، الكويت،
2006 م، ص 254، 255، 258. (فيما يلي لامارتين)

³ دوشاتوبريان، ص 9.

⁴ دوشاتوبريان، ص 12.

⁵ دوشاتوبريان، ص 12.

⁶ دوشاتوبريان، ص 14.

⁷ دوشاتوبريان، ص 97.

⁸ لامارتين، ص 226.

⁹ لامارتين، ص 288.

¹⁰ لامارتين، ألفونس دي، ص 330.

¹¹ لامارتين، ص 254-255.

- ¹² لامارتين، ص 256.
- ¹³ لامارتين، ص 256.
- ¹⁴ لامارتين، ص 249.
- ¹⁵ لامارتين، ص 258.
- ¹⁶ لامارتين، ص 255.
- ¹⁷ لامارتين، 238.
- ¹⁸ لامارتين، ص 227، 229.
- ¹⁹ لامارتين، ص 227.
- ²⁰ لامارتين، ص 315.
- ²¹ لامارتين، ص 233.
- ²² لامارتين، ص 293.
- ²³ لامارتين، ص 203.
- ²⁴ لامارتين، 283، 278، 231.
- ²⁵ لامارتين، ص 283.
- ²⁶ لامارتين، ص 256، 259.
- ²⁷ لامارتين، ص 235، 250، ص 20-23.
- ²⁸ لامارتين، ص 313، 318.
- ²⁹ فلوبيير غوسطاف، رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج 1850م، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، ط، 2013م، ص 54، 55، 65، 66، 68، 73، 77، (فيما يلي فلوبيير).
- ³⁰ فلوبيير، ص 17.
- ³¹ فلوبيير، ص 13، 17-18.
- ³² فلوبيير، ص 13، 17.
- ³³ فلوبيير، ص 17.
- ³⁴ أ. و. كينغلوك، رحلة إلى المشرق 1834-1835م، ترجمة محمود العابدي، سلسلة شرق الغربيين، دار السويد للنشر والتوزيع، ط 1، ط 1، 2005م، ص 68. (فيما يلي كينغلوك)
- ³⁵ فلوبيير، ص 23، 25.
- ³⁶ فلوبيير، ص 17-18.
- ³⁷ فلوبيير، ص 22، 24، 25.
- ³⁸ فلوبيير، ص 21-23.
- ³⁹ فلوبيير، ص 24، ص 61.
- ⁴⁰ فلوبيير، ص 50.
- ⁴¹ فلوبيير، ص 48.
- ⁴² فلوبيير، ص 51.

⁴³ فلوپير، ص 23، 24.

⁴⁴ روجرز، ماري إليزا، الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859 م، ترجمة :

جمال أبو غيدا، ص 21. (فيما يلي روجرز)

⁴⁵ روجرز، ص 12 – 14.

⁴⁶ روجرز، ص 10.

⁴⁷ روجرز، ص 14، 24، 27.

⁴⁸ روجرز، ص 29-32.

⁴⁹ روجرز، ص 22.

⁵⁰ لامارتين، ص 293.

⁵¹ روجرز، ص 18-19، 29-30.

⁵² روجرز، ص 29-32.

⁵³ روجرز، ص 28-29.

⁵⁴ لامارتين، ص 293.

⁵⁵ روجرز، ص 32.